يسوع جديد ...

قصة بقلم فاضل السباعي

خرج « عجب البلهوان » ، خادم مضافة المختار « داود العتر » ، الى المجتمعين في فناء المضافة ، وقد بدا عليه الضيق ، وصاح بهم من اعلى الدرج :

ـ اريد ان اعرف من الذي دسكم علينا ، الطخطور (الدكتور) سيزور الضيعة للتفرج على الخضره وكروم التين والزيتون ، لا للقاء سحناتكم ! انت يا عمي لطوف ، ما لك حاملا « فتافتك » الى هنا ؟ هل تظن ان «فؤاد بيك » سيحمل معه الابرة والخيط ليجري لك العملية في المضافة ؟

وأحد النظر في « لطوف العلي » المتجمع في ظل شجرة الدلب وسط الفناء وقد توسد حضن حفيده « عليان » . ثم نقل بصره بين مختلف الوجوه التعيسة التي ارهقها المرض وارمضها البؤس . ولكن عجيب البلهوان لم يدركه مع ذلك الاشفاق عليها ، بل اردف يقول في تعال :

ـ روحوا لبيوتكم . ومتى اقبل الطخطور وفرغ من نزهته ، اخبرناكم . يا الله ، اخرجوا ! الدنيا عصر .

ولما كان أيهم على استعداد ليستجيب لهذا النداء فينصرف ، وتطلعت « عيدة الخالد » اليه طويلا . نظرت الى انفه الافطس ، وشفته العليا المخيطة من اثر جرح غائر قديم ، والى شاربه الطرير ... ثم قالت بصوت واهن جهدت ان يصل الى اذني الفتى وما استطاعت :

ـ ولك يا ولد يا عجيب ، يا ابن فطيم بياعة «الجلة » ، يا عجيب ! انت غمال تطردنا من بيت شيخ ضيعتنا ، يا جربوع ، يا ابن القرعا ؟!

فمط الفتى رقبته المعروقة من خلال فتحة جلابيته الصفراء . وقال بنزق :

ـ نعم ؟ ماذا تقولين يا عيدة ؟ علي صوتك حتى اسمعك !

اجابت العجوز وهي في زاوية الفناء :

ـ عمرك لا سمعت ولا قشعت ولا سلم لك بصر !

وارتاح لطوف العلي لفحة العجوز ، وهم بان يرد على الفتى سخريته ، ولكن وهنه منعه من ان يقول شيئا . كان يحس في احشائه وجعا ، وهو قد اقبل على المضافة طمعا في مقابلة الطبيب لمعالجة دائه المزمن .

كان المختار قد دعا « فؤاد بيك » طبيب البلدة المجاورة ليزور الضيعة الغافية على زند الجبل تحت ظلال اشجار الزيتون ، مستمتعا بمنظر الكرز وهو « على امه » . ولطالما اعتذر الطبيب الشاب بالمشاغل .. حتى اذا عزم على زيارة الضيعة بصحبة زوجته ، كان موسم الكرز قد ولى ، فطاب في اعقابه اكل العنب والتين . ونشر المختار في ارجاء الضيعة خبر زيارة الطبيب له ، ففي ذلك تاكيد لوجاهته وتمكين لزعامته . وسعى الى مضافته المرضى من كل صوب يحملون طي اجسادهم عللهم واوصابهم راجين ان يجدوا لدى الطبيب الزائر ما كان ينبغي ان يلقوه من عناية لو كانت تملك ايمانهم اجرة السفر اليه في بلدته .

ودخل الشيخ « درويش الشعلان » ، المؤذن ، يرجو هو الآخر الدواء لدائه المستعصي . فاستقبله عجيب من اعلى الدرج ، وقال في مرح بادٍ:

ـ اهلين شيخ درويش . جئت قبل الاوان يا شيخ المشايخ ! الطخطور لم يأت بعد من البلدة .

وسر الشيخ الضرير من هذا الترحيب يبديه الفتى ، وهما اللذان طالما تضاحكا وتسارا بالحديث عن قضايا الشيخ « الخاصة » ، بقدر ما ساءه ان الطبيب لم يقبل بعد . وقال :

ـ العمى ! قالوا لي وصل !

ـ هي ضحكة منهم على ذقنك ، يا سيد المشايخ ! (ثم قال ماضيا في مزاحه ولكن في همس) خبرني بالله يا شيخ درويش : أانت مريض حقا حتى جئت تسعى لمقابلة الطخطور ؟ !

فقال الشيخ درويش زاجرا ، وقد فطن الى مخابثة الفتى :

ـ اسكت يا خبيث يا شيطان . هيبة لا تفضحني امام الجماعة !

وصلت ضحكة الخادم المضافة ، وبرزت لثة فكه العلوي محمرة من خلال الشق في اعلى شفته . ودخلت الفناء فئة من المرضى جديدة ، واتخذ افرادها اماكن لهم في الفناء الكبير ، منهم من افتعد الارض الترابية ، ومنهم من افترشها متوسدا حجرا أصم او حجر مرافقه من الاقارب او الجيران .

وما هو الا ان هدر في الفضاء صوت سيارة ، هي سيارة الطبيب . فاستفاق القوم من شرودهم وتحسس كل علته . ونزل من السيارة شاب في العقد الرابع من عمره ، اشقر الشعر ، ربع القامة ، على عينيه نظارة مذهبة ، وقد تعلقت بذراعه بنت حضر في نضارة العمر . كان المختار في استقبالهم ، حيث صافح الطبيب باحترام ، ولم يمد يده الى السيدة الشابة خشية الا يرضيها ذلك . ثم التفت الطبيب الى زوجته يعرفها بالمضيف قائلا :

ـ السيد داود العتر ، ابو طلال ، مختار الضيعة .

فتبسمت ، ومدت ساعدا بضا صافحه المختار في مزيد من الخجل . ثم شق طريقا وسط الرجال والنساء والاولاد الذين التموا في لمح البصر ليروا هذا الوافد الجديد الذي رأى في ضيعتهم ما يستحق ان يزورها و « حرمته » الطرية المرفهة .

ودلف الطبيب الى فناء المضافة . فرأى الجمع في احتشاده ، وقد اكتست الوجوه صفرة المرض ، وافصحت الملابس الرثة عن الفقر المانع من الانتقال الى البلدة في طلب العلاج . ففجئ وقد تصور نفسه يسوعا جديدا . وقال يخاطب المختار مداعبا :

ـ ما هذا ، يا ابو طلال ؟ مستشفاك تنقصه الاسرة ! (ثم قال ماضيا في دعابته) سابعث اليك بالممرضة « ليلى» التي تعمل عندي في العيادة !

ونظرت الزوجة الشابة الى الوجوه التعيسة ، فارتسمت على وجهها معاني الاشفاق والاشمئزاز جميعا ، وسارعت اصابعها « تقرص » بطنها الذي استنام في احشائه جنين ابن شهرين .. على حين ارتفع صوت « جمعة الوضاح » ، وقد جاء بابنه « حمادة » الذي ما فتىء يسعل سعالا يقطع نياط القلوب ، ليقول للطبيب :

ـ نحن بحاجة الى عطفك ، يا بيك . السعلة تخنقه . كلما جاءته السعلة، قلنا الولد راح من يدينا !

وهمس ابو طلال في اذن الطبيب عندما رآه ينكفىء الى الفناء لمعاينة الولد :

ـ دعهم الآن يا فؤاد بيك . شغلتهم طويلة . يجدر ان تستريحوا قليلا ، ثم ننطلق الى الجبل قبل ان تغرب الشمس .

فامن الطبيب على قوله . حقا انه جاء للاستمتاع بمنظر الطبيعة في تفتحها واخضرارها وغروب شمسها . ولكن ذلك لم يلهه عن اصطحاب ادوات المعاينة وبعض الادوية والحقن ذات المفعول الفوري ، وهو الذي

علم زوجته منذ زواجها القريب على « غلي » الحقنة على النار وتعقيمها وملتها واهلائها للمريضة القروية في ساعدها او فخذها عندما يعز عليها كشف عورتها على الطبيب !

ودخلوا المضافة .

كانت غرفة فسيحة مثل مضافة « الحاج خالد الزين » . فيها الارائك على المصاطب . وبدا ، وسط الحائط جوار الباب ، الموقد بما يشبه « الشومينيه » ـ مع فارق التشبيه ـ هو ليس لوقد الحطب والاستدفاء ، ولكن ليشعل فيه موقد الكاز (البابور) حين يرجى اعداد قهوة او شاي . وانسدلت بعض الستائر على الشبابيك ، ولكنها لم تكن لتحجب من ورائها اصص زهر « العطرية » بأوراقها ذات الرائحة العطرة النافذة . وعلى احد ارفف « الكتبية » ، منتصف الجدار الايمن ، صفت « النركيلات » . وانتظم ، في رف اعلى ، موكب « الدلات » من صفراء وبيضاء ، الاكبر فالاصغر على نسق يوحي بكرم المضيف وكامل استعداده للضيافة مهما بلغ عدد الضيوف . وتناثرت على الجدران الصور الملونة الصارخة الالوان . واعتلت صدر المضافة لافتة بلورية سوداء كتب عليها بالخط المفضض « ومما رزقناهم ينفقون » .

ورافت للسيدة اصص « العطرية » في النوافذ ، وما كادت تبدي اعجابها بأزهارها الشفقية اللون ، حتى وثب عجيب البلهوان الى الشباك واقتطف عشرا منها بين ممانعة السيدة وحضها اياه على الاكتفاء بواحدة او اثنتين . وابو طلال يقول :

ـ اهلا وسهلا بالخانم . زينت الضيعة يا ست .

وما كادوا يجلسون حتى عاد عجيب بصينية القهوة الحلوة ، ذلك ان سيده كان يدرك ان المودة ما بين المدينة والقهوة المرة مقطوعة او هي في سبيلها الى الانقطاع . وجلس المختار يرحب بضيفيه العزيزين مستشعرا الفخار بهذه الزيارة مستمرئا حسن وقعها في الضيعة .. ان الحاج خالد الزين ، منافسه على « المختارية » ، سيضبق عينا ، والسوف يشعر بانفضاض البقية الباقية من انصاره ومؤيديه . كان ابو طلال في ربيع كهولته ، طويل الجسم ، عريض المنكبين ، اكرش ، يلبس الجلابية الحريرية البيضاء ، ويعتمر على رأسه « العرقية » ذات التلاوين . كانت ملامحه كلها ـ بعد ان افاء الله عليه بالرزق العريض ـ تنحصر في ان تبقى له زعامته على الضيعة كمختار له الكلمة المسموعة لدى الجهات الرسمية . وانه لحريص على ان يعزز هذه الزعامة بدعوة الكبراء في مركز المنطقة ، الى ضيعته . ولقد دعا في مطلع الصيف موظف الشؤون الاجتماعية المشرف على التعاونية الزراعية في الضيعة ، الذي اضطر للمبيت عنده حين لم يجد في الليل سيارة تقله الى مركز المحافظة .

رشف الضيفان القهوة ، واعتذرا عن تحلية الضرس ـ قولة المختار ـ بـ « الكراميلة » . ولكن عجيب الح على السيدة ان تذوق هذه الحلوى فانها طيبة المذاق . كان يقول لها ذلك وهو يتوثب في وقفته كأنه مركب فوق نابض .. فامعنت النظر في وجهه ، من انف افطس وشفة مخيطة ، ثم استدارت الى زوجها تهمس في اذنه . فاذا الطبيب يضحك وهو ينظر الى وجه عجيب ، فيستجيب هذا لضحكه دون ان يدرك مغزاه . قال الطبيب :

ـ هل اشتغلت ، يا عجيب ، ملاكما في زمانك ؟

فانبسطت اسارير عجيب زهوا . ورأى في هذا الظن ما يوحي بقوته . وقال ضاحكا :

ـ لا ، يا حضرة الطخطور !

ـ بل قل « الدكتور » . (والتفت الى المختار يقول) هيئة غلامك توحي بانه ملاكم عتيق رغم صغر سنه ، فانفه افطس ، وهذا من علائم الملاكمين ، وشفته مرتوقة فكان « ضربة قاضية » سددت الى فكه !

وقهقه ابو طلال للتشبيه . وضحك الاثنان طويلا . واستشعر عجيب بمزيد من الزهو ، الم يبعث في نفس الطبيب وزوجته الشابة السرور والمرح ؟ وخرج الى المرضى يصيح فيهم بالتزام الصمت والهدوء لئلا يتضايق « حضرة الدكتور » ، فقد بات يحسن نطقها !

ولم يمكث الزائران في المضافة الا قليلا ، ثم خرجا مع المختار الى النزهة . انطلقوا الى الساحة الترابية ، ثم صعدوا الطريق الصخري المتعرج . كان الدرب وعرا ، ولكن السيدة جعلت تصعده بخفة ورشاقة ، ذلك ان حذاءها ذا الكعب العالي قد استبدل به حذاء اخر اشبه بالخف قد احضرته معها . وبدت لهم الضيعة في حضن الجبل بمنازلها وحقولها الشرقية المترامية حتى الافق . كان قرص الشمس على وشك الغياب ، يريد ملامسة قمة الجبل ليختفر لنفسه فيها لحدا يغوص فيه حتى الاعماق . وظلت الاشعة الشاحبة ترتمي على ذرى الحور وبعض اشجار اللوز العتيقة كأنها واياها في وشوشة او في تقبيل واع .

وبدت لهم النبعة عن كثب .

كانت هناك « هويدة الزين » في « كبها » الاسود المطرز بالحرير وغوازيها الذهبية المسترسلة من الراس الى الكتفين ، والى جوارها « هلالة فضل الله » ذات العينين الكحليتين ، وهما تملآن جرتيهما ساعة الاصيل . ورأت هويدة موكب المختار .. كان ابو طلال يسير مرفوع الهامة الى جوار ضيفيه الكريمين ، والقى على هويدة ـ بنت منافسه ـ نظرة تنطوي على معنى ما غاب عن الصبية عروس « شحاده الفندور » . فابتسمت في سخرية ، وقالت لهلالة في صوت اقرب الى الهمس ولكنه طافح بالمرارة :

ـ وماذا يعني ؟ يريد ان يفيظنا بهذا الدكتور ؟ في السنة التي مضت زارنا النائب العام بحاله !!

ولفتت نظرها الى جرتها حيث تستدر ضرع النبعة . ولكن هلالة لم تلتفت ، فقد انخطف بصرها عند السيدة الحضرية الرشيقة ، لله ما اجملها ! ويزيدها رونقا وبهاء هذه الزينة الفتانة !

تطلعت السيدة الى حيث الصبيتين تستقيان . جذب انتباهها صف الفوازي على رأس هويدة . فدنت اليها تقول في تودد :

ـ مساء الخير ، يا ست !

فلفتت هويدة وجهها دون ان يفارقه العبوس . وردت التحية بصوت لا يكاد يبين . فاردفت السيدة تسألها :

ـ انت عروس ؟

جاء السؤال لهويدة يؤكد لها رونق انوثتها الفياض وما هي فيه من « عرسية » خلابة . فافتر ثغرها عن البسمة الراضية ، واجابت بالايجاب . فمالت السيدة الى زوجها تبدي اعجابها بجمال بنت الريف وهي على العين . ثم تطلعت الى هلالة التي وقفت جوار جرتها تنتظر الدور ، وقالت لها :

ـ ما اسمك ، ياأخت ؟

ـ هلالة .

ـ هل انت متزوجة ؟

ففضت هلالة بصرها استحياء . واجابت عنها هويدة وقد امتلأت نفسها مودة وايناسا :

ـ مخطوبة يا خانم . مخطوبة لخطاب النبهان . وعرسها قريب ، في تشارين ..

قالت السيدة لا تخفي اعجابها :

ـ ما اجمل عينيك يا هلالة ! لو كنت في الحضر ، لفتنت اهل الحضر!

وسمع داود العتر وهو يحدث الطبيب شارحا :

ـ هذه حالنا مع الينابيع . اذا امطرت الدنيا شتاء ، فاضت ماؤنا في الصيف التالي ، وارتوى الجبل ، وادخرت تربته الرطوبة حتى الموسم ، واعطت اشجار الكرز عطاء سخيا . فاذا شح المطر ، قل عطاء الارض ، وقد تغيض الماء في بعض العيون فلا تقدر « الموتورات » ان تشرب شيئا من مائها .

فقاطعه الطبيب :

ـ وكيف المواسم هذه السنة ؟

اجاب المختار في سعادة :

ـ في خير ان شاء الله ، نحمده تعالى ونشكره . (ثم قال وهو يجتاز صخرة في طريق صعوده) لو رأيت الكرز على امه يا دكتور . عناقيد دم معلقة على الاغصان تخفيها الاوراق عن الاعين . عندنا في هذا

الجبل الوف من اشجار الكرز ، وكثير منها زرع مؤخرا ، هناك في القمة بين الصخرة والصخرة ما وجدت بينهما فسحة ترابية صغيرة صالحة لان تغرس فيها شجيرة المحلب .

قال الدكتور متسائلا في لهجة علمية :

ـ وما شجر «المحلب» هذا ، يا ابو طلال :

فاجاب المختار مفيضا :

ـ المحلب ، يا فؤاد بيك ، هو الشجيرة التي تتحول الى كرز . ومتى بلغ المحلب من العمر ثلاث سنوات طعمناه كرزا . ان « جبل الزاوية» في جميع وهاده وسفوحه وقممه ، صالح لزراعة المحلب ، اي الكرز ، وليس في جميع البلاد سهل او جبل اصلح منه لزراعة الكرز .

وتناهوا في الصعود ، حتى كادوا يدركون بعد العناء ذروة الجبل . وصاحت السيدة الشابة وهي تتعلق بذراع زوجها :

ـ اما كفانا صعودا ؟ راينا الجبل ، وهذا مطله على الضيعة ، ما في اجمل منه ، فهمنا ! كفا بالله عن الصعود ، تقطعت انفاسي . انت يا ابو طلال ، ارحمنا وارحم نفسك من التعب وانت ابن الخمسين .

قال المختار :

ـ من قال ؟ انا ابن اربع واربعين . واني اصعد الجبل خمس مرات في اليوم . نحن ، ابناء الجبل ، لا يهمنا الصعود ، بل لعله ايسر علينا من السير على الارض السهل!

واعترضتهم صخرة كبيرة . فتوقفت الشابة عندها ، فجذبها زوجها، واحتملها في رفق بين ساعديه .وقالت معلقة على كلام المختار في دعابة:

ـ طيب ، انتم ابناء الجبل لا يؤودكم الصعود .. ولكن نحن ابناء المدن ، اقصد بنات المدن يا حسرتي ، ما ذنبنا حتى نطلع الجبل ،فتطلع معه ارواحنا ؟ !

لم يفقه ابو طلال دعابتها او يسمع سؤالها . كانت عيناه قد سرقتا من محجريهما . اذهله ان يرى الرجل يحمل زوجه ! ما هذا ؟يحملها بين ذراعيه ـ مثل قطة ظريفة ـ امام غريب ؟ ذلك كانه التمثيل في السينما ! ثم ما لبث ان تبسم في سرور . انها الصداقة ، ما بينه وبين الدكتور ترفع الكلفة . وتصور نفسه وهو يحمل « ام طلال » ! ولكنها ليست في رشاقة القطة ، انها ام لاحد عشر ولدا .. واتسعت البسمة على شفتيه . كانت الشابة تنظر الى المختار من وراء زوجها ،فقرات الذهول في وجهه ، ثم الابتسام . وعندما هبطت الارض بعد اجتياز الصخرة قالت للمختار :

ـ رايتك تضحك يا ابو طلال ! الا تحمل انت ام طلال اذا نالها التعب او صعب عليها اجتياز الطريق ؟

قال المختار في جفوة هي في مفهومه الرجولة الحقة :

ـ المراة عندنا هي التي تخدم الرجل . وهذا كل ما لها في ضيعتنا من حقوق .

ـ مليح ، واذا مرت بها لحظة عابرة لم تستطع السير على قدميها ؟

قال المختار ضاحكا وقد احسنه حسن التخلص :

ـ تسير على يديها !

فضحك الطبيب وقال :

ـ كاني بك تريد ان تقول ، يا ابو طلال ، ان المراة عندكم يمكن ان تنقلب فجاة الى بهلوانة !

وضحك الثلاثة ، حتى شرق المختار من فرط ما ضحك ، فقد لذ له ان يتصور ام طلال بهلوانة تمشي على يديها وهي التي في ثقل الفيل !

وكانوا قد وصلوا الى ذروة الجبل . فتطلعت الزوجة الى الشمس ، في الافق الغربي على الذرى البعيدة ، تريد ان تختفي في لحدها المستجد . واستراحوا على صخرة مسطحة مطلة على الضيعة . كانت ذروة الجبل صخرية ، الا من فسح ترابية صغيرة موزعة على قلة بين الصخور قد عاجلتها يد الانسان الذي لا يقف امام الطبيعة مكتوفا ، ففرس في كل فسحة شجرة او شجرتين ، ولما لم يكن المحراث ليصل الى اعلى الجبل ، فقد اعمل يديه موضع المحراث . وانبسطت ، فيما يلي القمة ، المنحدر وقد احالته السواعد السمراء المفتولة الى مدارج مستوية يعلو بعضها بعضا ، خلال الصخور ، حمراء التربة في لون العقيق ، مقسمة الى « حواكير » كل لفلاح مجد يسكن ادنى الجبل ويصعد يومه للعزق والركش والفراس . ولقد تراءى لبعضهم ان يحتفر في «حاكورته» بئرا ركب عليها « موتورا » يمد بالماء «المساكب» الخضراء الزمردية .. فاذا الجبل ، في مدارجه ، جنة فيها البساتين المخضوضرة ، وفيها كروم العنب والكرز والتين واللوز والرمان ، وفيها الزيتون بين الصخور فتيا قد افرع من سنين ، بعد ان داهمه « صقيع الخمسين » فاتلف الجذوع المعمرة ، ولكن الجذور ظلت ثابتة في الارض لتعطي فروعا وليدة يتفجر النسغ في عروقها فتعيش مائة من السنين اخرى قبل ان يدركها الفناء.

راقت الجلسة للزائرين . وتمنت السيدة لو اتيح لها ان تعيش في بيت يبنى لها فوق هذا الطل الاخضر المونق ، اذن لعاشت بدل العمر عمرين، ولظلت شابة لا يخترمها الهم والهرم . وكان ابو طلال يجيب ، في مجاملة ، بانه مستعد ان يبني هذا البيت في آخر الموسم اذا ما «امر» البيك الدكتور بذلك وشاء ان يشرف الضيعة بسكناه فيها .. . ثم قام يقطف ، مع برودة المساء الهابطة ، بعض عناقيد العنب الندي ،ولمار التين المتشقق من استواء عن قلبه الوردي ، او هو مفلق لم يزل فقاق الشهد في داخله فانبثق من فم التينة يسيل !

وطعم الضيفان من العنب والتين في مرح وشهية وانشراح ،والشمس تتوارى خلف الذرى البعيدة . وكان لا بد من العودة قبل ان يعتم المساء. فهبطوا يعبرون الحواكير الى ان وصلوا النبعة . وهناك ، كان المساء

ينوء بكلكله فوق اشجار اللوز والجوز والحور المنبثقة في استقامة الحور العين في صدورهن عن العين يحملن الجرار . وفي الساحة ،امام النبعة ، كان بعض النسوة مازلن يملأن الجرار ، او هن يتصنعن ملأها طامعات في رؤية« زوجة الدكتور الشابة » ، كما تناقلن من خبر ..

وفي الدرب الهابط ، كان « شحادة الغندور » يتمشى على مهل في اختيال الشباب ، وعرقيته البيضاء الصغيرة المطرزة بـ « القناويشة » تزدهي على هامته وقد بدت من دونها طرته . وخرج من شاب الضيعة الى الدرب « خطاب النبهان » ، وقد اتاه العلم بزوجة الدكتور التي ابدت اعجابها بعيني خطيبته هلالة . كما خرج « راضي افندي الزعلان» معلم المدرسة، يتفرج على بنات المدن الناعمات الفارهات «طيور الحجل» ـ كمايسميهن ! ـ فانه مغرم باستجلاء محاسنهن غرامه المعروف .ونزل « حميد الشيخ عمر » خطيب «آمنة » ، من كرم ابيه العالي الى النبعة يتسقط الانباء وقد اتاه منها طرف .. فكان ان اجتمعوا اول الامر على النبعة فكانهم على موعد ، ثم هبطوا الدرب الى الضيعة يتمشون متمهلين لحين عودة موكب الزائرين من نزهتهم الجبلية .

وسمع من على الدرب حسيس اقدام ، وحديث هين بين امراة ورجل او رجلين ! فاشراب راضي افندي متطلعا الى اعلى متشوفا ان تقع عينه على ما يرضي صبوته التي عجلت به للخروج الى الدرب ، فرآها ... رأى « المدنية » الناعمة الفارهة « طير الحجل » ، تثب كالغزال فوق الصخور ، وقد انتعلت خفا رشيقا هو الى اخفاف الفلاحات اقرب لاختفاء الكعب العالي في مؤخرته ، ولكن اين البنت الفلاحة من تينك الساقين المكشوفتين ؟

ـ هي ذي تنط كالغزالة ... انظروا يا شباب !

قال المعلم غير مالك زمام لسانه :

والتفت الشباب الثلاثة ، وراء قولته ، لفتة واحدة الى حيث تهبط الزائرة . ولكنهم ما لبثوا ان التووا عنها بوجوههم من حياء ، فما علمهم ربغهم ان يجهروا النظر الى « الحرير » ولكن معلم المدرسة ، الذي سلخ من عمره سنوات الفتوة في المدينة ياخذ العلم في مدارسهـــا وشوارعها جميعا ، لم يلتو .. انه مغرم ببنات المدينة ـ لماذا النكران والمواربة ؟! انهن « حجلات » ! وبرهان غرامه تعلقه باحدى المعلمات في البلدة ، مركز المنطقة ، وعزمه على خطبتها والدخول بها في مطلع العام الدراسي .

ومر بهم المختار وضيفاه . فلم يبدأوا مختارهم بالسلام . فلعله يجد في السلام حرجا وفي صحبته امراة . ولكن المختار ابتداهم :

ـ الله بمسيكم بالخير يا شباب .

فتعالت الردود تنم عن ابتهاج . وانتهز راضي افندي هذا السلام ـ فهو لا يضيع المناسبة ـ ليشرع في حديث لعله يطول :

ـ هل اريت ضيفينا العزيزيـن النبعة ، يا ابو طلال ؟

اجاب المختار في تسليم :

ـ نعم ، نعم .

ـ وكروم التين والعنب فوق ؟ وهل قدمت لهما ثمار جبلنا الطيب؟

قال الطبيب في تباسطة :

ـ الحقيقة : لم اذق مثل هذا التين عمري !

فعاد المعلم يقول ، و زملاؤه جواره صامتين :

ـ تين ضيعتنا اطيب تين في الجبل يا بيك . ويا ليتك تاكل التين صباحا ! تقطف التينة من صدر امها وقد غمرتها انداء الفجر !

وتطلعت السيدة وهي تمسك بساعد زوجها ، الى معلم المدرسة ، فراته يتفاصح ، وهو في جلابيته الريفية ، على طريقة اهل المـــدن . فتجاوزته الى شحاده بعروسيته البادية ، فالى خطاب وحميد الشابين اللذين ينطق سيماهما بنضارة الريف . وارتسمت على شفتيها بسمـــة طفيفة هي دليل حب للريف ، لشاباته وشبابه ، ودروبه ، واراضيه ، واشجاره ، وثماره اليانعة تقطف في المساء عند الغروب او مع الفجـر الندي .

وتابع الضيفان والمختار هبوطهم ، واختلف الشباب الاربعة فيما بينهم عمن حاز منهم اعجاب السيدة اكثر من سواه . وفي الضافة ، هناك ، كان عجيب البلهوان ما يزال يصيح بالقوم المتجمعين في الفناء مهيبا بهم التزام الصمت والسكينة ، والعجوز عيدة الخالد ما تفتا ترد عليه بما يريح خاطر المرضى الذين ليس فيهم قدرة على الكلام والنقار !

ولما وصل الزائران الى الضافة ، كانت العتمة قد سادت الضيعة ، وتزايد عدد المرضى في الفناء . وادخلت السيدة الى « الحرملك » فخلعت خفها ، وتمطت ، ثم تمددت على الاريكة وهي تشكو لام طلال من طول« المشوار » . وام طلال تنظر اليها بعينين ريفيتين فاحصتين ، فلم تدخل بيتها بعد بنت فريفة كهذه ، ولكن لماذا تدع جسدها لاعين الرجال هكذا ؟! لم لا تلبس ثوبا سابغا ؟ ولكن ام طلال لم تحاول منح البنـت نصيحة بالتستر ، خشية من ابو طلال ان يلومها ويعنف في اللوم .

واحس الضيفان بعد النزهة بالجوع . فاما التين والعنب فقد ذابا في الاحشاء ، فداب المآكل الشهية الا تمكث في المعد الا قليلا .واعدت المائدة . وتناثرت عليها صحون الخير الريفي العميم ، فهذا «الزيتون»ـــ « المجرح » منه و « المكلس » ـ و «العطون»والعسل والزبدة وانواع المربيات وتوسط المائدة «ديك هندي» قد ذبح ونتف في الليلة الماضية وعلق في الهواء ليجف لحمه ، وهو الان مورد الوجنات من خجل العري، او هو محمر الجنبات من شي وقلي يقطر عرقا وسمنا ودسما ، وقد احاطت به اوراق الدوالي وثمار التين صفراء وحمراء ، وفي آخـــر المائدة زورق « الهلبية » المتطاول على صفحته دروب اللوز وجـوز الهند المبشور !

وقام على خدمة المائدة « طلال » واخوه «مصطفى » . ولم يجلس الى الطعام مع الضيفين سوى المختار . فاما حريمه ، زوجه وبناته ، فهن محجبات موزعات ما بين المطبخ وغرفة الجلوس يسترقن النظر والسمع من خصاص الباب الى زوجة الدكتور كيف تؤاكل الرجال .. وقد حسدتها « علياء » على هذه النعمة ، نعمة مخالطة الرجال والمجتمع، فذلك خير من اختفاء الريفيات وراء الابواب كالارانب ، على حين لم تجد اختها « ثريا » في هذه المخالطة غير مخالفة للدين وللحياء الذي ينبغي ان تتحلى به المراة لتظل في اعين الرجال كريمة عزيزة .

وبعد العشاء همس ابو طلال في اذن ضيفه ليفحص له زوجته . كانت ام طلال حاملا في شهرها الاخير . انها امراة ولود تمنح زوجها الاولاد في« القطاعي » غالبا وفي « الجملة » في بعض المرات . وما كان للطبيب ان يطلب من ام طلال الكشف عن جسدها وهي مستلقية على الاريكة تلقاءه ، فقد علمته مهنته ان الريفية قلما تستجيب لذلك . وتحسس بطنها من فوق الثوب الازرق المحرحر (المطرز بالحرير) ، وقال لزوجها الواقف جنبه كالديدبان :

ـ تمضي ستة ايام او اسبوع ، ويكون لك ابـن سليـم معافى .

(وقال بعد لحظة) من الذي سيشرف على عملية الوضع ؟

قال ابو طلال :

ـ داية الضيعة العجوز يا دكتور ، « الحاجة حفيظة الحلبية »

فساله الطبيب :

ـ وهل هي من حلب ؟

ـ انها من الضيعة ، من عندنا . ولكنها عاشت بحلب صـــباها خادمة في بيت قابلة ، فاخذت عنها المهنة ، وعادت الى الضيعة لتقـوم بالتوليد .

وانتقلوا الى الضافة ليحتسوا القهوة بعد العشاء . كان عجيـب ما يزال يصيح بالمرضى ان يلزموا الصمت ، وعيدة ترد عليه بشتائمهـا ذاتها لا تغير منها شيئا : « ابن فطيم القرعا ! .. ابن بياعة الجلة ! ».. وهو مزهو بما يصدر عنه من اوامر ونواه !

كان الشيخ درويش الشعلان قد غادر الضافة الى المسجد لاداء اذان المغرب بعد ان اعياه الانتظار ، وغادرها ثانية لاذان العشاء ، وها هوذا الان على ناصية الدرج يتقرب من عجيب ، ويقول له في تودد وهو يهـز راسه الكبير وقد بدت مقلتاه المحمرتان .

ـ يدي في زنارك يا عجيب .. دخيل الله اجعلني اول الداخلين

الى الطبيب !

قال عجيب :

ـ ما تكرم عينك يا شيخ درويش اليس عندنا في الضيعة سوى شيخ درويش واحد ، هو انت !

ـ الله يعزك يا عجيب ، ويبعدك عن الامتحان الذي انا فيه . تصور كم هو مخجل مرضي امام الناس وامام حرمتي . لم اعد رجلا ، ولا انا بامراة ...

ووميضت الفكاهة في ذهن عجيب ، فقال وهو يطلق ضحكة :

ـ انت « شكر » يا عمي درويش ، لا انثى ولا ذكر !

ـ عيب يا عجيب ! استحي يا ولد ! انا بمقام والدك .

وصفق ابو طلال ، بايعاز من الطبيب ، يطلب دخول واحد من المرضى . وخرج مصطفى ، ابن المختار ، لينادي على احدهم . فتسلل في الحال « جمعة الوضاح » الى المضافة وهو يسحب بيمينه طفله «حمادة» ، حيث تركه وسط الغرفة ، وسارع الى الطبيب يصافحه وينحني على يده ، ويقول :

ـ الله يمسيك بالخير يا دكتور .. الله يطول لنا عمرك ، ويبني لك في الجنة قصر السعادة !

ويهم بان يقبل يد الطبيب ، لولا ان سحبها هذا بحركة بارعة ، فاذا قبلة الفلاح تنعقد على ابهامه هو .. ثم سمع صوت الشيخ يصيح في اقتدار محتجا ، بعد ما سبقه جمعة الوضاح في الدخول على الرغم عما قطع له عجيب من تعهد :

ـ ما هذا يا ابو حمادة ؟ الدور دوري !

ودنا عجيب من جمعة يصرخ فيه معاتبا وقد تراءى له ان سيادته على باب المضافة قد انتهكت :

ـ من سمح لك بالدخول ؟ هل اخذت مني اذنا ؟ هيا اخرج حتى يحين دورك !

فقال الطبيب زاجرا وقد شهد من تطاول عجيب وقحته عجبا :

ـ ماذا في الامر يا عجيب ؟ اكلت الرجل من غير ملح ! وانت يا شيخ.

قال الضرير في تادب :

ـ اسمي درويش .. الشيخ درويش الشعلان ، يا سيدي !

ـ انت يا شيخ درويش الملخانة (في حلب ينسب « الدراويش » الى « الملخانة » ، وهي تكية مشهورة كانت لهم) ، ما عليك لو صبرت دقيقتين ؟ يعني الدنيا انتهت ؟!

اخذ ابو طلال يد الشيخ الضرير الى خارج المضافة ، وهمس في اذنه ان ينتظر قليلا فلا يزعج البيك الدكتور الذي اخذ على عاتقه ان يعاين مرضى الضيعة بالمجان . فقال الشيخ درويش في حرقة والم :

ـ ولكن مرضي يا ابو طلال !

ـ ما له مرضك ؟انت لا تشكو من الم والحمد لله . يمكنك الصبر والانتظار

ـ ولكني خجلان منه ، يا داود ، يا ابو طلال !

فقال المختار في مسايرة :

ـ طيب عال ، سنقدمك للمعاينة بعد ان يخرج جمعة مباشرة .

وفي المضافة ، كان جمعة الوضاح لا يفتا يدعو للطبيب الدعوات الصالحات : طول العمر ، وبقاء الحرمة والولد ، وقصر السعادة في الجنة بعد العمر الطويل . ويقول في الم ابوي يكاد يذوب معه قلبه المشفق :

ـ ولدي يا دكتور . « السعلة » تكاد تخنقه . عندما تاتيه يزرق لونه ، وتنقطع انفاسه ، حتى نقول الولد مات .

فساله الطبيب ، وهو يعاين عيني الطفل المنتفختين ويكشف على « الملتحمة » المحمرة :

ـ هل يشهق اثناء السعال ؟

ـ يشهق ، نعم ، حتى نظن انه النفس الاخير !

ـ منذ متى بدأ السعال ؟

ـ من شهرين يا دكتور .

ـ هل يقيء بعد نوبة السعال ؟

ـ نعم يا دكتور ، اي والله .

قال الطبيب ، وهو ينظر الى الطفل في ضعفه وهزاله ، ويخرج ورقة عليها « الوصفة » !

ـ ابنك معه « سعال ديكي » . هل سمعت بهذا المرض ؟ (ولم يبد على الاب انه عرف المرض او سمع به) طيب ، هذا دواء شراب كتبته لك ، تسقيه اياه ثلاث مرات في اليوم . ثم ، يا ابو حمادة ، هل لابنك اخوة صغار معه في الدار ؟

ـ نعم ، عندي « عموري » .

ـ كم سنه ؟

ـ شهرين ثلاثة ...

ـ لا خوف عليه من العدوى . مع السلامة . (وصفق الطبيب صائحا) تفضل ، يا عم يا شيخ درويش .. اين انت ؟

ولم يدخل الشيخ درويش ، وانما الذي ولج الى المضافة عبيدة الخالد ، شتامة عجيب البلهوان . كانت عجوزا محنية الظهر ، موشومة الوجه وظاهر الكفين جميعا . جعلت تدق بعكازتها الارض وهي تسير متحاملة على شيخوختها البيضاء .

قال الطبيب يبدي ترحيبا :

ـ اهلا وسهلا بخالتي العجوز .

فقالت العجوز بصوت منهك :

ـ اسمي عيدة .

ـ مائة اهلا بخالتي عيدة ، كيف صحتك ؟

وادارت عيدة في الحاضرين عينين كليلتين تنزان دمعا وصديدا . واستقر ناظراها عند الشابة ، زوجة الطبيب . فقالت تساله :

ـ هي زوجتك ؟

اجاب الطبيب مداعبا :

ـ نعم يا خالتي عيده . هل اعجبتك ؟ هل تتمنين ان تكون بنتك ؟ خذيها !!

فتبسمت الشابة ، وضحك المختار وابناه طلال ومصطفى ضحكا عريضا ، وفرح عجيب لدعابة الطبيب ، وتمتمت عيدة :

ـ ربي يخليها لك . قربان الله ، ما احلاها ! عروس ما شا الله !

ـ قربي يا خاله . بماذا تشعرين ؟

وجعلت العجوز تقص عليه بصوتها الواني كيف اعترتها الرودة اولا ، ثم الحرارة الشديدة التي تعرق لها جسدها حتى لكانها غمست

هل صحيح ...
أن الحقيقة أغرب من الخيال ؟
ان القصة الواقعية الجديدة
من يطفئ النار
للاستاذ وفيق العلايلي
هي أبلغ جواب على هذا السؤال
طباعة فاخرة ـ لوحات فنية ٤٥٠ ق.ل.
منشورات مكتبة المعارف في بيروت

في ماء البركة ، هناك عند النبعة ، واخرجت مبلولة !

ـ اف ! كل هذا العرق ، يا خالتي عيدة ؟

ـ واكثر يا ولدي ! الله يبعد عنك المرض .

ـ والان ؟

ـ راحت الحرارة . لكني تعبانة .

وتطلع الطبيب الى وجهها المصفر ، وشاهد الاعياء على هيكلها كما قراه في صوتها . انها « الملاريا » ، حقنة « كينين » تمنح الشفاء .

ـ طيب . حقنة واحدة تعيدك الى صباك ! ما رايك ؟ الا يسرك ان تعودي صبية ؟! (وتوجه الى زوجته يهمس في اذنها) اعدي الابرة في الحرملك . (ثم قال للعجوز) انتظري قليلا يا خالة ، خمس دقائق فقط .

ودخل الشيخ درويش الشعلان المضافة مطرقا من كدر . لقد اغضبه ان يسبقه في الدخول جمعه الوضاح ، وان يؤاخذه الطبيب ، ويسحبه من يده ابو طلال خارجا به الدرج ، الم يعد له في مضافة المختار قدر ؟! مضافة الحاج خالد الزين احسن !

قال الطبيب اذ وقعت عينه على طلعة الشيخ الضرير :

ـ اهلا شيخ درويش . ها قد حان دورك . في الصبر السلامة . ما وجعك ؟

فازداد الشيخ اطراقا . لم يعد اطراقه من غضب ، ولكن من حياء وخجل .

ـ قل يا شيخ درويش ، هيا ..

فضحك الضرير بغتة ، وكانما يدغدغ من خاصريته ، وهز راسه الى يمين ويسار ، وقال :

ـ اخجل من ذكره امام الجماعة !

قال الطبيب متشوقا سماع ما يضحك :

ـ تعال وشوشني !

وهمس الضرير في اذن الطبيب بسره . لقد بات عنينا منذ شهر . فساله الطبيب عما وقع له في هذا التاريخ ؟ فشرح الضرير ما كان من مفاجاة زوجته له وهو مع تلك المومس .. فقال الطبيب وهو يبتعد عنه الى الاريكة :

ـ وقبل الحادث ، كيف كانت حالك ؟

فارتفع صوت عجيب البلهوان ، من باب المضافة ، يجيب كما لو ان السؤال موجه اليه :

ـ كان مثل الحصان .. يا دكتور !

فثنى الضرير قائلا :

ـ اي والله ، كنت مثل الحصان . الضيعة كلها تعرف .

وتوجهت عينا الطبيب الى المختار ، وكانهما تستوضحان . فضحك ابو طلال ، وهو يحمد الله في سره ان زوجة الطبيب قد غادرت المضافة لاعداد الابرة ، ثم قال :

ـ كان الشيخ درويش يفيض ، من قبل ، بالحديث عن رجولته . وفجاة جعل يشكو . بدات الشكوى في اليوم الذي تلا الحادثة .

فردد الطبيب بلهجة من وقع على المرض :

ـ عقدة نفسية . هذه عقدة نفسية !

ولم يفهم الشيخ درويش ولا ابو طلال معنى لهذا القول . ولكن الضرير سرعان ماظن ان « حل » هذه « العقدة » يقتضي اجراء عملية جراحية له في مستشفى البلد ، فاصابه الجزع . ولكن ... ما يخيفه ؟ يريد ان يعود رجلا سويا . انه على استعداد لاجراء سبع عمليات في اسبوع !

ـ ومتى اجريها يا دكتور ؟

ـ ما هي !

ـ العملية !

ـ اي عملية ؟

ولاذ الضرير بالصمت . وضحك الطبيب قائلا :

ـ بل الامر ابسط من ذلك . ادن مني .

وجعل يعاينه . لقد راى الطبيب في هذا المريض الفاسق « نموذجا بشريا » جذابا ، فازداد اهتمامه به . وشاء ان يكتب له في الوصفة « حبوبا » وحقن « استركنين » لتقوية الباه .

ـ ستعود حصانا عما قريب ، يا شيخ درويش .

ـ من فمك الى ابواب السماء . والله انا خجلان من حرمتي ومن نفسي ومن الناس . الله يطول عمرك يا دكتور !

وهمس عجيب في اذن الضرير وهو يقوده الى خارج المضافة :

ـ هيه « الحلاوة » من اليوم ، يا شيخي .. فالشفاء قريب .

وتوالى المرضى : « مريم الاسماعيل » تشكو من ضعف ساقيها . و« يوسف العمر » من تراخوما مزمنة في عينيه . واما « جنيد الهندي » فانه يشكو مما سماه « حركة » في بطنه دون ان يستطيع وصفها او يبين اعراضها !

دخل اخر المرضى ، « لطوف العلي » ، عجوز يدب الى هيكله الفناء . كان حفيده « عليان » يمسك بيده بدل العكازة . لم يعد للعجوز معيل من يوم ان ان دهست ابنه الشاب ، ابا عليان ، سيارة سيترن قبل ثلاث سنوات وهو يسوق حميره الاربعة في ظاهر الضيعة في الطريق الى البلد لبيع غلة التين ، وضاع الغريم ... وقعد الاب على شيخوخته في البيت ، « يضمن » كرمه بالاجر القليل ويتقبل ما يتصدق عليه به المحسنون . ولكن الالم في احشائه ، الذي بات يحس به اخيرا :

ـ منذ اسبوعين يا دكتور ، وبطني توجعني وجعا شديدا .

ـ اكشف لارى .

خجل العجوز من الكشف عن بطنه . ذلك انه كان من غير « لباسة » .

ـ اكشف يا عم !

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب ـ بيروت

ودارت عينا العجوز على الحاضرين توزعان عليهم معاني الخجل والوسل بان يفضوا عنه النظر . فاشار الطبيب اليهم ان يتراجعوا الى الوراء خطوات . فرفع المريض ذيل ثوبه . فاذا الطبيب يرى عجبا : كان في اسفل البطن فتق ، قد نبقت منه الاحشاء في حجم البيضة او اطول ، وتدلت في جال تدعو الى الجزع دون ان تدركها عناية الطبيب المداوى .

ـ ما هذا يا عم ؟ منذ متى وانت « مفتوق » ؟

اجاب العجوز محني الظهر :

ـ من سنتين ! (ثم قال) ولكنه لا يؤلمني يا دكتور ، الفتق لا لا يؤلمني . احس في بطني الالم ، في داخل بطني !

ـ الفتق هو مبعث الالم . عليك بالعملية . (ثم قال للمختار) لم لم تتداركوا الرجل يا ابو طلال ؟

اجاب المختار وهو يدنو الى حيث العجوز ما زال حاسرا ذيل ثوبه :

ـ انه لا يملك مالا !

واطل عجيب يريد ليرى حال العجوز ، وهذا يداري نفسه عنه في حرص الخجلان . فزجر الطبيب الفتى الفضولي . وهو يقول للمختار :

ـ اذا كان فقيرا ، فبالامكان اجراء العملية في مستشفى الحكومة بالمجان . استخرج له « شهادة فقر حال » وان اندبر البافي .

واخرج ورقة نقدية دفعها للعجوز تكاليف سفر الى البلد ، موصيا طلال ان يصطحبه في القريب الى عيادته . في حين عاد عجيب يطل على المريض ، يريد ليرى حاله جيدا . فقال له الطبيب هازئا :

ـ ماذا رأيت يا عجيب ؟ هل اعجبك الحال ؟

اجاب الفتى :

ـ اريد اتعلم الصنعة على يديك ، يا دكتور !

ـ هل رافت لك مهنة الطب ؟

ـ ليتني اعمل في عيادتك .

ـ ما صار شيء . هيا ..

ودخلت زوجة الطبيب ، وفي يمينها الحقنة المعدة . فقال عجيب ان عيدة الخالد قد ولت الادبار مذ سمعت بخبر الابرة . فقالت الشابة في نزق ، وهي التي صرفت نصف ساعة في اعداد الحقنة وتعقيمها غليا على النار :

ـ لم تركتها تنصرف يا عجيب ؟

ـ وماذا اعمل لها ؟ هربت .

فالتفتت الشابة الى زوجها :

ـ والان ؟ الابرة جاهزة ، حرام تضيع !

وما هو الا ان اصدر الطبيب امره الى كل من طلال ومصطفى ابني المختار ، وهو يشير الى عجيب :

ـ اقبضوا على هذا المشاغب . اذ لم تنفعه الابرة ، فليس فيهاضرر !

واحس عجيب بالخطر ، فبادر الى الباب وثبا يطلب النجاة . ولكن سد عليه مصطفى طريق الفرار . فصرخ الفتى من جزع وخوف . فرد على صراخه الطبيب قائلا :

ـ الم تعجبك المهنة ، وترغب في تعلمها ؟ هاك الدرس الاول . ارفعوا ثوبه ، ونزلوا « لباسته » !!

وندت عن الفتى صرخة رعب اخرى . وحاول جاهدا الخلاص . ولكن السواعد القابضة الانت عريكته وزرعت اليأس والاستسلام في فؤاده . وسرعان ما انفرز رأس الابرة في الفخذ ، بين الانين والاشفاق والضحك .

ثم قال الطبيب وهو يربت كتف « مريضه » : ـ بالعافية يا عجيب . هذا درسك الاول !!

حلب — فاضل السباعي

صدر حديثا الجزء الاول من كتاب :

قصة الفن الحديث

للدكتور سامان قطايه

*

■ « ان وجود مثل هذا المؤلف وهذا الكتاب شيء يبعث على الامل والرجاء. »

جمال السجيني

استاذ فن النحت في كلية الفنون بالقاهرة

*

■ «انه عمل جليل وخدمه رائعة تقدم لمحبي الفنون في الشرق العربي ، وحين قراءتي هذا الكتاب تنتابني النشوة والفخر لهذا الكسب العظيم للمكتبة العربية»

حسين بيكار

استاذ فن التصوير في كلية الفنون بالقاهرة

*

■ لقد تبينت من خلال الكتاب ثقافة فنية بعيدة .. وهو يعرف على اخصب فترة ابداعية مرت بتاريخ الانسان » .

عفيف بهنسي

مدير الفنون التشكيلية والتطبيقية
في وزارة الثقافة للاقليم السوري

*

■ « انه من الكتب التي تعوز مثقفينا كلهم ، وكلنا يعرف فقر مكتبتنا بكل ما يمت الى الفن بصلة والى الفن الحديث بصورة خاصة »

الدكتور عبد السلام العجيلي